

النقد التفكيكي لنظرية العلامة اللسانية عند دو سوسير
Deconstructive criticism of De Saussure's linguistic sign theory

د. معرف مصطفى

جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس

musphilos@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2021/06/01	2021/04/01	2021/03/14

الملخص:

يروم هذا البحث، الى التنقيب في الاسباب و الخلفيات التي تقف وراء تقليص التقاليد اللغوية، و الدلالية الغربية، من دور الكتابة. اذ تعتبرها مجرد زائدة ثانوية، وتقنية مادية خارجية لتمثيل الكلام . وفي مقابل الحضور المطلق الذي يحققه الصوت من خلال حيوية التلفظ و أسبقيته، فإن الكتابة المرئية، البعدية، المتجسدة على سطح ملموس مؤهل لذلك، تحاول فقط استعادة هذا الحضور، استعادة ناقصة، مشوهة، وخطيرة بحسب هذه الخلفيات الميتافيزيقية المتمركزة حول اللوغوس والصوت، وفلسفة الحضور. و هذا تقليد معرفي و لغوي عتيق لا يزال مستمرا إلى يومنا، باعتباره سيكون مرجعا ابستميا لقيام علوم اللغة و اللسانيات، و ذلك منذ ارسطو الذي رأى ان الصوت اقرب ما يكون الى المعنى، مروراً بأفلاطون، الذي حذر من الكتابة متهما اياها انها تشجع على الكسل، وصولاً الى دو سوسير الذي جعل من الصوت اساساً لنظرية العلامة و المعنى .

الكلمات المفتاحية: فرديناند دو سوسير؛ جاك دريدا؛ التفكيك؛ العلامة اللسانية؛ الكتابة .

Abstract: The purpose of this search is , to explore the causes and backgrounds which is behind the downsizing of linguistic traditions, and the Western semantic of the role of writing, it considers it just a secondary residual, and an external physical technique to represent speech. In exchange for the absolute presence that the voice achieves, through the vitality of the pronouncement and its precedence, the visual, dimensional, writing embodied on a tangible surface eligible for this, just trying to regain that presence, with imperfect, distorted, and dangerous restoration, and dangerous according to these metaphysical backgrounds centered on logos, sound, and the philosophy of presence. And this is an ancient epistemological and linguistic tradition that continues today, as it will be an epistemic reference for the establishment of the sciences of language and linguistics, since Aristotle who saw that the sound is closer to the meaning, passing by Plato, which warned against writing, accusing it of encouraging laziness, arrival to De Saussure, who made sound a basis for the theory of sign and meaning.

Keywords: Ferdinand de Saussure, Jacques Derrida, Deconstruction, The linguistic sign, Writing.

1. المقدمة :

يتكلم الإنسان ثم يكتب بعد ذلك فيما هو شائع ، و أسبقية الكلام هذه ، هي التي ستستمر بشكل أكثر تعقيدا و راديكالية مع علوم اللغة ، و على رأسها اللسانيات و علم الأصوات phonologie التي تأسست على دراسة الصوت و اعتباره أساس قيام علوم اللغة ، ما يؤكد امتداد التمركز حول الصوت أو ما عرف بالتمركز الصوتي phonocentrisme ، أي ذلك التمركز الذي يجعل الصوت شرطا معرفيا و ابستيميا لقيام علوم اللغة، و ضرورة عقلية أملتها اشتراطات اللوغوس، الذي بقى وجوده فعليا و حضوره قويا في تأثيره على حقول الميتافيزيقا و الفلسفة و علوم اللغة، هذا اللوغوس عينه هو الذي يقدر مثالية الصوت و يحتقر مادية الكتابة .

لهذا كله، يفهم جيدا فيلسوف التفكيك جاك دريدا لماذا كان روسو مثلا، يدين الكتابة ويعتبرها تدميرا للحضور أي باعتبارها تشكل تهديدا لنظام الصّواتة phonè الذي أرسى قواعدها فرديناند دو سوسير " فتاريخ الكتابة هو تاريخ التلغظ " ¹، مثلما كان يشير إلى ذلك روسو في كتابه " محاولة في أصل اللغات " .

لم تعد الكتابة مع دريدا ذلك النقش البسيط الذي يأتي بعد الكلام ليعمل على تمثيله وتسجيله، فللكلام مكانه الأكثر قربا من الإنسان بتعبير هيدغر ، بل لقد أصبح الكلام ذاته ناتج عنها، وفوق هذا، ذهب دريدا من خلال بسطه لمشروع علم الكتابة Grammatologie إلى اعتبار الكتابة أقدم من الكلام وموجودة قبله، وقصد تجاوز العنف القائم بين ثنائية الكلام/ الكتابة، يسوق دريدا تصوّرا عاما يجمع بينهما دعاه بالكتابة الأصلية أو البدئية .

فما موقف دريدا من خلال مشروعه التفكيكي، اتجاه هذا الوضع الدلالي و السيميائي اللساني، الذي ينطوي على مسلمات و اشتراطات العلامة، المتمركزة على الصوت phonocentrisme و فلسفة الوعي، التي تتمثل الوجود كحضور، و في ميتافيزيقا التتطابق التي تتصور المعنى في تطابق الدال (اللفظ الصوتي) و المدلول (المفهوم الذهني) .

2. من تقويض المركزية الصوتية الى تأهيل العلامة الكتابية :

يتقدم طموح دريدا من خلال فلسفة الاختلاف وتفكيك فلسفة الحضور، كمحاولة لتحرير اللغة من وضعها الميتافيزيقي القديم بتأهيل العلامة الخطية التي تكمن طاقتها بتعبيره في " تفجير الأفق الدلالي " ²، ولكن كيف سيعمل دريدا على تجاوز الوضع اللغوي واللساني الذي ينزع نحو امتياز الصوت ويتضامن مع اللغة المنطوقة والعلامة اللسانية ، تماما مثلما ذهب إلى ذلك إدوارد سايبير

(1939-1884) E.Sapir حينما صرح أن: "اللغة الصوتية لديها السبق عن جميع أشكال التواصل الرمزي والتي بالنسبة لها، لا تمثل إلا تنفيذات بديلة مثل الكتابة أو الإيماءات التي ترافق الكلام"³.

فما هي المكانة التي ستحتلها العلامة الخطية في مشروع دريدا الدلالي، وكيف سيفك مفهوم العلامة كما جاء عند دي سوسير، وهو الذي أعلن في الجراماتولوجيا من أن استراتيجية العامة للتفكيك تهدف إلى "تدمير مفهوم العلامة ومنطقها كله"⁴، ذلك أن السؤال عن العلامة هو السؤال الفلسفي الوحيد الذي يفلت من السؤال الماهوي "ما هو؟"، حسب دريدا.

كما يدفع دريدا بفاعلية التقويض إلى حدودها القصوى لتقصي وكشف المكتآت النظرية والفرضيات التي انبنى عليها تصوّر مفهوم العلامة اللسانية، وينتهي إلى استنتاج أن هناك تواطؤ وامتداد ميتافيزيقي مستمر يلتف حول مركزية الصوت وهو ما يفسر أيضا الاهتمام المتزايد بعلم الأصوات Phonologie كما تجلت مع أبحاث تروباتسكوي (1938-1866) Troubetzkoy، أندري مارتيني (1999-1908) André Martinet وغيرهم زيادة على النزعة الجبرية الغلوسيمية Glossématique لهامسليف (1965-1899) Hjelmslev الذي اتجه إلى شكلنة متطرفة للغة تركية لتوجهات دي سوسير الذي استعبد الكتابة من الدرس اللغوي مشككا في شهادتها ومعتبرا إياها قناعا تنكريا داعيا إلى الانطلاق من الصوت في الدرس اللغوي وهذا بحسب دريدا تكريس آخر لهيمنة نظام الصوت وللامتياز المعقود للكلام في مقابل تهميش الخط والكتابة.

لقد ركزت البنيوية Structuralisme في أوائل القرن العشرين على اللغة المنطوقة واتخذتها أساسا لبناء اللسانيات، ولذلك فإن اللساني دي سوسير وأتباعه أعطوا الأفضلية في الدرس اللساني للغة المنطوقة عازفين عن الشكل المكتوب الذي اعتبروه مجرد محاولة لتسجيل الأصوات المنطوقة، مثلما أشار دو سوسير إلى ذلك بقوله: "إن الخدمة الحقيقية التي تقدمها لنا التصويتية هي أن تسمح لنا اتخاذ بعض المحاذير اتجاه هذا الشكل المكتوب الذي لا بد من اجتيازه وصولا إلى اللغة"⁵، وهو ذات الموقف الذي استقر أيضا مع لسانيين آخرين مثل ساير Sapir، وبلومفيلد (1949-1887) Bloomfield وغيرهما.

الكتابة بهذا، سينحصر وجودها في مجرد إعادة خطية لما أنجزه الصوت بالفعل من خلال الكلام، تماما مثلما صرح بذلك فرديناند دوسوسير مؤسس علم اللسانيات، الذي لم ير من بد أو ضرورة لوجود الكتابة، إلا لتسجيل جرافيكيا للكلام بغية الاحتفاظ به و إمكانية تكرار ما أملاه الكلام و أنجزه مسبقا بالفعل.

لذلك، و توازيا مع هذا، نجد أن مفهوم الكتابة في ظل تاريخ التجربة العلمية، منظورا إليه من زاوية إبستمولوجية épistémologique ينحصر في حدود منحها دورا وظيفيا fonctionnel ، و تقنيا technique .

لم تخرج هذه الرؤية بدورها، من الإرث الفلسفي الغربي الذي حدد مفهوم العلم، و شروط العلمية ، ضمن نفس تلك التمرکزات ، إذ ليس غريبا أن تنحدر فرضيات و مسلمات الشروط المعرفية لعلوم اللغة، التي حددت تبعا لذلك إبستمية مفهوم الكتابة من عدد متباين من مفاهيم و سيل من الأفكار، و المعتقدات و التماثلات التي تساق نحوها طوعا، كلما أردنا التاريخ للأفكار .

وإذا كان تصور مفهوم العلامة" كعلاقة تجمع المعنى بعنصر صوتي أو كتابي في عملية التواصل" فإن تناول دي سوسير لطبيعة الدلالة في كتابة " دروس في اللسانيات العامة" انتهى إلى أن العلامة اللسانية هي مجموع ما ينجم عن ترابط الدال *Signifiant* بالمدلول *Signifié* .

وهذا فالعلامة عند دي سوسير وجهين: دال ومدلول تماما مثل وجهي الورقة واتحاد هما هو الذي ينتج عنه تكون الدلالة، فالدال ذو طبيعة حسية ناتج عن الانطباع الذي تخلفه الصورة السمعية Acoustique في الذهن أما المدلول فهو يمثل التصور أو المفهوم الذي نملكه عن هذه الصورة السمعية، ويعتبر دي سوسير أن طبيعة العلاقة التي تجمع بين الدال والمدلول هي اصطلاحية Conventiionnelle، ترجع إلى التواضع المعقود عليها في المجتمع كما أنها اعتباطية وتعسفية Arbitraire، أي لا تخضع لأي ضرورة منطقية.

و اعتبارا، تتقدم اللسانيات ومعها تصور مفهوم العلامة اللسانية كامتداد لمفهوم الحقيقة المستندة على منطق الثنائيات الميتافيزيقية من خلال التفريق بين ما هو ملموس وما هو معنوي Sensible/ Intelligible، وهو نفس الشيء الذي عبر عنه جاكوبسون (1896-1982) R.Jakobson من أن "الصورة الكتابية تعمل كدال والقونيم كمدلول"⁶.

3. تفكيك العلامة اللسانية عند دوسوسير:

من خلال تحليله المعمق لمفهوم العلامة عند دي سوسير، يخلص دريدا إلى أنه خلف الفهم التقليدي للغة وخلف التصور العام للعلامة، التي لها نفس زمن ومكان الولادة مع الألوهية، تكونت ميتافيزيقيا على شكل قوة اشتراطية قوية تم من خلالها انتقاء كتابة صوتية طيبة تسهم في تلبية الفرضيات العلمية للسانيات التي تستمر مع امتياز الصوت، ويخلص دريدا إلى القول

أن: العلامة تمثل ما يقرب من قرن، عمل احتضار تراث كان يزعم انتشار المعنى والحقيقة والحضور والوجود من حركة الدلالة.

وإذا كان دي سوسير يعتبر أن الكلام يرمي إلى إظهار الفرد للغة وتحقيقه إياها عن طريق الأصوات الملفوظة أو عن طريق العلامات المكتوبة، فإنه يقصى المرجع الخارجي ويعده ثانويا في حدوث المعنى وتحقق العلامة، فالمهم لديه هو تشكل العلامة في الذهن مثلما يكمن الامتلاء الذي يحققه حديث النفس الباطني، أي العودة إلى الصوت من دون كلام فعلي.

هذا الصوت الداخلي الذي يلتف حول المدلول المتعالي Signifiant transcendante، بغض النظر عن المرجع الخارجي، إذ أن كل "دال وفي المقام الأول الدال المكتوب"، شيئا متفرعا أو ثانويا، وهو دائما تقني وتمثيلي⁷، وهو عينه ما ذهب إليه أيضا إمبيرتو إيكو E.Ecot من منظور سيميائي واستعادته لأهمية الواقع في حدوث المعنى.

وعلى عكس ما ذهب إليه دي سوسير، من أن العلامة اللسانية جزء من السيميائيات وخاضعة لتقسيم ثنائي: دال ومدلول، فإن النظرة الإحالية من خلال ما اقترحه ريتشاردز Ritchards وأوغدن Ogden في كتابهما "معنى المعنى"، "the meaning of meaning"، تقول بالبعد الثلاثي للعلامة، أي دال ومدلول ومرجع، واعتبر أن العلامة اللسانية عندما غابت المرجع فإنها بالتالي ابتعدت عن المصادقية العلمية، وأن وجود الأشياء سابق لوجود العلامات Signes ولا يمكن القفز فوق الواقع أو تجاهله لتكوين الدلالة.

من جهته، انتقد إميل بنفنيست E.Benrenist (1902-1976)، مقولة الإعتباط كما صاغها دي سوسير ورأى أن العلاقة بين الدال والمدلول "ليست اعتباطية بل على العكس إنها ضرورية"⁸، أي أن عملية الإستحضار هي تلازمية تتم في اتجاه مزدوج بين الدال والمدلول وليس في اتجاه واحد كما عند دي سوسير.

في نفس السياق ينتهي بارث R.Barth (1915-1980) إلى اعتبار أن لا وجود للإنسان خارج اللغة، وأن العلامة اللغوية كفيلا كمرجع بتأطير وقراءة مختلف العلامات أي مختلف الأنساق الدالة الممكنة، إذ "أنتنا ن فكر بالعلامات"⁹ يقول دريدا.

يتمحور الصوت في صميمه، في خاصية السمع للتو الذي يصدره، فهو ينتج دالا يظهر أنه لا يقع في العالم، أي لا يبتعد عن مثالية المدلول Idéalité du Signifié الذي لا يسقط في خارجانية المكان البراني أي في العالم الذي هو بمثابة الخارج بالنسبة لجوانية الصوت، وهذا هو شأن الاقتصاد الفينومينولوجي الذي يحتفظ بمثالية الكلام الحي مختزلا خارجانية المكانية للدال،

في مقابل مثالية ومعنوية المدلولات غير المرئية بتعبير ميرلوبونتي (1961-1908) M.Merleau-Ponty.

لاحظ دريدا أن دي سوسير يحذو حذو فينومينولوجية هوسيرل في اختزال واخفاض العالم الخارجي أو تعليقه و الإحتفاض بأحسنه، وهو في نظريته حول العلامة اللسانية يفرق بين الصوت كمادة تحدث انطبعا حسيا في السمع ، وبين الصورة الأكوستيكية التي هي خبرة داخلية للأثر الذي يخلفه الصوت في المستمع، فهو يعطي لنفسه الحق في اختزال بالمعنى الفينومينولوجي للكلمة، علوم الأكوستيك والفيزيولوجيا، في نفس الوقت الذي يؤسس فيه لعلم اللغة.

و يخلص فيلسوف التفكيك، إلى أن نظرية العلامة اللسانية عند دي سوسير، شأنه في ذلك شأن كل الميتافيزيقيين القائلين بفلسفة الحضور، لا يخرج عن الطابع العام الممتد في عمق التيولوجيا المسيحية، وعلى حد تعبير جوليا كريستيفا J.Krestiva ، فإن " حقيقة اللغة هي مسيحية Chrétienne"¹⁰.

إن اللوغوس الذي يعد الكتابة مجرد آلة أو أداة لتمثيل ما هو أصلي وجوهري أي الكلام، سيعمل على انصياح كتابة طيبة تتماشى وفرضيات اللسانيات وتنقاد نحو تأكيد مسلماتها ممثلة في الكتابة الصوتية، فهناك حسب دريدا وفي فترة تاريخية ولادة تواطئ ما بين علم اللاهوت *Théologie*، ومركزية اللوغوس *Logocentrisme* والنزعة التقنية *Technicisme* لذلك انساق ديسوسير على ما يبدو وراء أفكار روسو حول اعتبار الكتابة وسيلة خداع لا تعمل إلا على إضعاف التعبير، عكس الكلمة المملوطة التي تم اعتمادها في اللسانيات باعتبارها تمثل الشكل الأكثر تأصيلا والأكثر طبيعية للغة.

لهذا، - وحسب دريدا- ينزلق دي سوسير بشكل مثير للدهشة مع نزعة التمرکز الصوتي ومع الخيار الابستيحي للسانيات الذي ينتقي شكل الكتابة الصوتية أو الحر وفيه متجاهلة الأنساق. الكتابية غير الصوتية مثل الكتابة التصويرية *Pictographique* ، من أجل توكيد وبسط الفرضيات اللسانية الملتفة حول امتياز الصوت، وهذا ما يفسر أن الكتابة الصوتية الأبجدية بقيت لزمن طويل تعامل باعتبارها الكتابة الأكثر مرونة والأكثر قابلية للفهم ، عكس التهديد الذي تمثله الكتابات غير الصوتية.

يخلص دريدا إلى أن تصور اللسانيات للعلامة من خلال دي سوسير يظل مقيما في الانحدار النسبي لهذه المركزية اللوغوسية التي هي تمرکز صوتي أيضا، أي حبيسا للتمرکز حول للصوت والكلمة التي تعبر عن الجوهر المطلق، وامتدادا لميتافيزيقا الحضور، الصوت الذي عده هيجل منحدرًا من الروح واعتبر أفلاطون الحقيقة حوارًا صامتًا للروح مع النفس.

يستنتج دريدا أن تاريخ الميتافيزيقا الغربية هو تعيين للوجود بوصفه حضورا *فالجوهر الشكلي للعلامة لا يمكن أن يحدد إلا من خلال الحضور* لذا يدعو دريدا إلى وجوب تفكيك مفهوم المركز لأن المركز لا يمكن لمسه في شكل الوجود، بل ليس له خاصية مكانية كما أنه ليس مثبتا موضعيا بل وظيفيا، وبغيابه وتفويضه يتحول كل شيء إلى خطاب وتذوب الدلالة المركزية الأصلية المفترضة أو المتعالية، وتتحول قوة الحضور بفضل الاختلاف إلى غياب للدلالة المتعالية، وإلى تخصيب للدلالة المحتملة، أي إلى تفجير طاقة الدال ودفعه إلى أفق الممكن ذلك أنه "قبل أن تكن أولا تكن ممثلة ومجسدة في شكل جرافيك، العلامة اللسانية تتطلب كتابة أصلية"¹¹.

4. الغراماتولوجيا كعلم للانفتاح الدلالي :

تتقدم العلامة الخطية أو الكتابية *Signe écrit* مخترقة الأفق السيميائي بما تتيحه من توليد مستمر في بعدها الدلالي بغياب المؤلف أو حتى بعد موته، فسيميوطيقا دريدا تنظر إلى "العلامات الخطية والصوتية/على السواء/بوصفها أبنية خلاف تتحدد بواسطة رسوم وأثار غائبة توضع تحت ممحاة"¹²، ومفككة مقولات الحضور غير المتناهي للزمن والتي تتجسد في الكلام بوصفه إطارا للحضور والهوية والوحدة والبداهة على حساب الكتابة بوصفها إطار للغياب والتعدد والاختلاف وهذا الوضع خلق الظروف لجدالات تأصيلية للتداخل القائم بين الحقيقة الصوتية والعلامة الخطية.

من خلال التأسيس للاختلاف داخل اللغة، ومحاولة استعادة دور الكتابة والعلامة الخطية بهدف بلورة علم للكتابة أو الوجود المكتوب، يقوم دريدا بتفكيك مفهوم العلامة اللسانية عند دي سوسير، منتقدا الإقرار بوجود مدلول متعالي: مدلول، مصطلح، نويم (Signifié, Concept, Noème)، وهذا المدلول المتعالي الذي اعتبر سابقا للدال وجوهريا في الدلالة تبعا للامتياز الميتافيزيقي الذي يرى أن الصوت هو أقرب ما يمكن من المدلول، بعكس الدال الذي لا يعلب إلا دورا ثانويا، لهذا يعتقد دريدا أن الإهمال التقليدي للكتابة، نتج عن النفور الفلسفي والميتافيزيقي من الطابع الخارجي المرئي المجسد للكلمة المكتوبة.

سعت الميتافيزيقا الغربية إلى تقزيم الدال والاستخفاف من دوره، ومن ثم التقليل من شأن الكتابة والعلامة الخطية مقابل تركيزها على المدلول ومثالية الصوت المنضوي تحته، إذ إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ إعلاء من شأن المدلول *Signifié* واعتبار الدال الكتابي مجرد سبيل عارض يتم العبور عليه للوصول إلى المعنى *Sens*.

لهذا السبب، يعتقد دريدا أن الغراماتولوجيا ليست في حاجة إلى نجدة من اللسانيات لأن "الكتابة والعلامة الخطية تفتح الوعي على العلامة من حيث أنها قدرة ثورية"¹³ واللسانيات ذاتها

كعلم تكونت على فرضيات ومسلمات ميتافيزيقية بمقابلة الكلام والكتابة ، وأصبح الامتياز المعطى للصوت عندئذ هو هذه الوحدة التلفظية للصوت والمعنى داخل منظومة الصوت ، بينما اعتبرت العلامة الخطية كشيء يخرق هذه الوحدة فهي خارجية ومادية ، ولا تعمل إلا كزائدة تأتي لتكرر المدلول الصوتي أو كما عبر عنها من قبل أرسطو Aristotle ، وروسو Rousseau وهيكل Hegel ، من أنها علامة لعلامة *Signe de signe* .

لقد تم و منذ الانطولوجيا اليونانية ممثلة في أفلاطون ، النظر إلى الكتابة كصدي ضعيف لا يمتلك إلا وجودا مخادعا، يعمل على تكرار لوغوس أصلي يمتلك وجودا حقيقيا، حتى أن أفلاطون كان يعتقد أن اختراع الكتابة لم يعمل إلا على تشجيع الكسل! ، و هو ما يفسر عزوف العديد من فلاسفة اليونان عن الكتابة واحتقار ما هو مادي، مقابل امتياز مثالية الصوت و الكلام الحي المباشر ممثلا في الجدل المباشر ، الذي هو بمثابة لب الفلسفة اليونانية المعبرة عن حيويتها .

الكتابة، التي هي في عمومها تمثيل *représentation* اللغة الملفوظة بواسطة علامات كتابية *signes graphiques* ، سوف تنحدر نتيجة طابعها المرئي الحسي ، والمادي البراني إلى خانة الثانوية ، وهذا الوضع الذي نجد أثره في عمق الإرث الفلسفي الميتافيزيقي الغربي، سيستمر ويتواتر صداه مع مسلمات علوم اللغة، وينسحب أيضا على طروحات العديد من الفلاسفة وموقفهم من الكتابة.

يظهر تاريخ اللغة، كيف أن جوهر تصور العلامة في التقاليد الميتافيزيقية والفلسفية الغربية ، انبنى في جوهره على صوتنة *phonétisation* الرّمز الكتابي *symbole écrit* والمنقوشات الكتابية *epigraphes* ، وهذا التقليد كثيرا ما اصطدم مع نوع من الكتابات لا تخضع لنظام الصوت كما هو حال الكتابة الهيروغليفية أو الكتابة الصينية ، ففي عرف التقاليد اللغوية يظل التفكير في الكتابة كنموذج مرئي خارجي غريبا عن نمط التفكير الفلسفي الغربي، الذي هو تفكير لوغوسي يلتف أساسا حول الامتياز المعقود لمثالية الصوت.

لقد اعتبر الكلام الحي، بعكس الكتابة، ضمن تلك الفرضيات الميتافيزيقية ، الوحيد القادر على المستوى الذهني، أن يعكس الأشياء المجردة من دون إعطائها صبغة مادية أو تجسيمية، وهو ما يشكل مع فرضيات اللسانيات وعلوم اللغة منتهى نظرية العلامة اللسانية، بينما يتراجع تأثير العلامة الكتابية الخطية إلى حدود المادية والثانوية والخارجانية، وهي صفات تحكم على الكتابة البقاء في دائرة الرؤية الفلسفية ، التي هي امتداد وترسيخ للرؤى الميتافيزيقية المتمركزة حول

الصوت الذي تعتبره قريبا من المعنى، وتنفر من الطابع المادي والمرئي للكتابة، التي هي مجرد إعادة لما ينجزه الكلام.

ان الامتياز الذي تمنحه الفلسفة الغربية للصوت والكلام يعود إلى نموذج تصور الحقيقة المبني على التقسيمات والمقابلات الثنائية التي وسمت التفكير الغربي، في تمييزه بين ماهو محسوس sensible، وماهو ذهني معنوي intelligible، ومنه المقابلة بين الصوت المثالي والكتابة المادية، لأن امتياز الكلام ينبع أساسا من الفرضيات الميتافيزيقية التي تقول بقرب المعنى من مثالية الصوت الجواني المعنوي، في مقابل برانية ومادية الكتابة التي نظرت لها الفلسفة كمظهر للغة الطبيعية المفلوطة" عن طريق دال signifiant، ذو طبيعة مرئية كتابية أو تصويرية pictographique".

تظل اللسانيات بحسب دريدا، من هذه الناحية، مؤسسة على التناقضات ومنطق التقابلات الميتافيزيقية التي تقصي الكتابة من الدرس اللغوي، ما يفسر تواطئ وانزلاق دي سوسير السريع في انتقائه للكتابة الصوتية التي هي كتابة طيعة تتماشى وفرضيات اللسانيات المتمركزة على الصوت على خلاف العلامات الخطية، التي تكون بمثابة الأساس الجديد الذي يركز إليه مفهوم الكتابة، سيما وأن النظريات المعاصرة حول العلامة أصبحت لا تنظر "في الكيانات اللسانية وحدها بل وأيضا في الدلالات غير اللفظية"¹⁴.

لذلك، نجد أن كتابة غير صوتية مثل الكتابة الطبيعية أو التصويرية Pictographique هي كتابة مناقضة لما يرجوه دي سوسير، لأنها تمثل تهديدا لأسسها الإستيمية، غير أن دريدا ينبه أن لا وثوقية موجودة بين حدود الكتابات الصوتية وغير الصوتية وأن على نظرية اعتبارية العلامة كما جاء بها دي سوسير "أن تتجاوز التفرقة الساذجة بين العلامة اللسانية والعلامة الخطية"¹⁵.

أن الحضور والغياب الذي تسمح به العلامة الخطية، في أفق الأنساق الكتابية الممكنة، يبين عدم كفاية العلامات ونقصها، ويكشف في الوقت ذاته، عن عجز العلامة اللسانية عن تحقيق الامتلاء المحكوم بحضور مطلق. كونها تقوم أساسا على قاعدة الحضور للتو، و الحضور هنا الان في الوعي، أي باعتبار العلامة اللسانية، ترد في مفهومها الدلالي و الابستمي الى ميتافيزيقا و تيولوجيا قديمة قدم الانسان، تعلي من شان المثالية و الشفافية التي يحققها الصوت.

5. الاختلاف والوظيفة المزدوجة للعلامة الكتابية :

ولكن ما هي طبيعة العلامة الخطية عند دريدا؟ وما هي المكانة التي تحتلها في الأفق السيميائي والغراماتولوجي كما تصوره إذا علمنا أن فلسفة دريدا " تتمحور حول كشف المتعالي الذي يتخفى تحت كل أشكال الأحكام"¹⁶.

اشتق دريدا مفردة ا خ (ت) لاف Différance بالجمع بين كلمتي Difference (التي تعني الإختلاف والتباين وعدم التشابه) وكلمة Déférence والتي تعني الارحاء والتأجيل، ونلاحظ من هذا أن المعنى الأول يحيل إلى مدلول مكاني Spaciale، أما المعنى الثاني في كلمة Déférence فيحيل إلى مدلول زماني Temporel.

ويرى دريدا استنادا إلى ذلك من أن العلامة تؤدي هذه الوظيفة المزدوجة، أي الاختلاف والتأجيل معا، وبهذا فبنية العلامة عند دريدا مشروطة بالاختلاف والتأجيل وليس كما عند دي سوسير: دال ومدلول والذي هو في جوهره قصور المعنى كاختلاف بين الحسي والمعنوي / Sensible / Intelligible ، فبنية العلامة هي الاختلاف الذي يعني أن العلامة شيء لا يشبه علامة أخرى، وشيء غير موجود في العلامة على الإطلاق.

1- الاختلاف: نلاحظ مثلا ، في كلمتي Three وتعني ثلاثة وكلمة Tree وتعني شجرة، نلاحظ في هذا المثال أن عامل الاختلاف في الكلام (النطق) وفي الكتابة معا، لذلك يمكننا التمييز بين هتين الكلمتين، فهما مختلفتين وتكشفاً عن هويتهما إذ أن العلامة تحمل سمة هذا الاختلاف الذي هو قوتها.

2- التأجيل (الإرجاء): القوة الثانية للعلامة عند دريدا هي قدرتها على التأجيل والارحاء كما في المثال التالي: نلاحظ مثلا أن كلمة " وردة" في نص النصوص لا تكشف عن معناها إلا بعدما ندرك شيئا فشيئا أنها ليست تلك الوردة التي نراها في الواقع بل معناها شيئا آخر مؤجل باستمرار وذلك الشيء هو ما يجب علينا اكتشافه، لأن العلامة تتجاوز الوجود، الوجود كحضور، وإذن فاعلامه عند دريدا ذات شقين: نصفها متحقق والنصف الآخر مؤجل، وإذا كانت العلامة عند دي سوسير اتحاد (دال + مدلول)، فإنها عند دريدا (اختلاف + إرجاء).

دوسوسير: دال + مدلول.
دريدا: اختلاف + إرجاء.
العلامة

نخلص بهذا أن طبيعة العلامة عند دريدا هي طبيعة سياقية Contextuel "بمعنى ينبغي أن تدل على علاقاتها ببقية القول بموضعها الذي تحوزه فيه" ¹⁷ وهو شأن العلامة الخطية أيضا في النص.

لهذا يصوغ دريدا مصطلح المحو أو تحت الشطب ليشير إلى نقص العلامات وعدم كفايتها وامتلاءها وقطعيتها أيضا. فلا وجود عند دريدا لعلامة يمكن أن تكون دالا لشيء أزلي، أي لا تتمتع بأي قيمة مطلقة أي لا تحيل لأي شيء متعال Transcendental ، شأن هوسيرل في تصويره المثالي للكلمة Mot بأنها "تملك موضوعيتها Objectivité وهويتها المثالية، باعتبارها لا تخضع لأي مادية صوتية Phonétique أو كتابية Graphique" ¹⁸.

في المقابل، يساهم الإملاء orthographe بدوره، في تجديد المعنى من خلال بلورته للكلمة بلورة مرئية، فهو يسمح بقراءة إيديوغرافية idéographique إيحائية تتيح بتفرقة سيميائية كما في الجنس الناقص للكلمات التالية: زجاج verre ، خضرة vert ، نحو أو اتجاه vers ،..... إلخ التي تنطق بكيفية واحدة غير أن خطية الكتابة تعطي جسما للصوامت consonnes ، والصوائت voyelles ، وتمنح صورة للفكر كذلك، وعن طريق عملية القراءة التي تعيد وتمكن الكتابة من التجذر في الكلام، تعطي الكتابة الحياة للنص، مبدية بالتوازي مع ذلك، التشكيلات الصوتية المختلفة التي تكونه ، حتى أن الفلسفة اليونانية ومن مستوى سيميائي، ربطت تعلم اللغة بتعلم القراءة والكتابة توازيا مع تعلم النحو .

بهذا، فكل ما تستطيع العلامة القيام به هو أن تذكرنا بما هو غير كائن فيها، أي الإشارة إلى المسكوت والمغيب، ولهذا فالعلامة أثر Trace ، والأثر في كليته ينجز العلامة بوجهها الاثنين، ودور الأثر يتجلى في أن ما هو كائن في العلامة أي الجزء المتحقق من بنيتها يحرك الذهن باتجاه ما هو غير كائن فيها، ولهذا السبب فإن ما هو موجود في العلامة يحمل أثر ما هو غير موجود فيها.

وبالتالي، فالعلامة الخطية بحكم هذا الطابع المزدوج من الحضور والغياب تكون الأساس الذي ينبنى عليه المفهوم الجديد لتصور مفهوم الكتابة من خلال الغراماتولوجيا، وتصور فضاءات أخرى ممكنة للجغرافيك حتى لو كانت غريبة عن نظام الصوت، وذلك من خلال نموذج بدائي للكتابة هو الكتابة الأصلية ، " فالكتابة الأصلية، إذا ما كانت هناك واحدة يجب أن تنتج مكان وجسم الورقة نفسها" ¹⁹ يقول دريدا.

6. خاتمة :

إذا كانت العلامة اللسانية، هي الوحدة الأساسية للتصور الدلالي لعلوم اللغة، سيما اللسانيات البنوية مع دو سوسير، التي ولا شك، أعطت دفعا لفهم اللغة ودراستها دراسة علمية في ذاتها و بذاتها مثلما صرح دو سوسير، إلا ان النقد التفكيكي، الذي مارسه جاك دريدا على الاسس النظرية للسانيات و لنظرية العلامة، خاصة في تمركزها الصوتي، حاول من خلاله استعادة دور العلامة الخطية و تفعيل طاقتها وأدواتها الجرافيكية، و ذلك حسب نوع وطبيعة الرسالة التي أريد لها أن تعبر عنها أو ترمز إليها، حينما طورت الكتابة بطبيعتها الغراماتولوجية بحسب حاجيات سياق التواصل من حفظ الفكر و الدلالة، وأحيانا أيضا على الإحتفاظ بالسر كذاكرة أمينة لا تسلم مفاتيح فكها، إلا لمن يمتلك ناصية وحكمة فك أَلغاز شفراتها، التي هي انكشاف المعنى على نفسه وعتبة تأويل العلامة الخطية.

وعموما، فإن الكتابة هي الوسيلة التي تمكن الفكر من أن يصبح مرئيا، ومن المعنى أن يتخذ شكلا، ومن الكلام أن يتثبت خطيا، والكتابة هي التي تسمح بالحوار مع اللامرئي، وباستحضار الغائب كما لو كان موجودا.

الكتابة بهذا، هي التي تسجل ما يبدو زائدا غير ذي أهمية، وتحفظ ما هو مهم وضروري، وما هو مقدس أيضا، وبهذا فهي تكثف من مجالات استعمالها السيميائية، وتنوع من وحداتها الكتابية، وتخلق علاماتها الخاصة بها باستمرار بحسب الثقافة الاصلية التي نشأت وتطورت فيها، وبالتالي فالعلامات الخطية تعكس نمط الثقافة التي تشكلت فيها، وأسلوب التواصل الذي يبتغيه الإنسان بحسب المستوى الحضاري الذي يصل إليه وقيمة الرسالة التي يريد تبليغها.

ولكن، و على الرغم من أن دريدا سعى إلى تفكيك ميتافيزيقا التقابلات الثنائية، ومفهوم العلامة اللسانية، إلا انه ألا يمكن القول مع هذا، من أنه يظل مقيما هو الآخر، ولو بشكل مختلف، في نسق فلسفة الاختلاف بدل فلسفة الهوية و التطابق، و في التمرکز حول الكتابة و علم الغراماتولوجيا، بدل التمرکز حول الصوت و اللسانيات . وهل استطاع دريدا فعلا تجاوز التقسيمات الثنائية التي حددت مفهوم العلامة و بنيتها، وهو الذي أراد من خلال مشروعه التفكيكي و السيمنطقي، تجاوز العنف القائم بين ثنائية الكلام والكتابة من خلال بسطه لمفهوم الكتابة الأصلية.

7. الهوامش :

¹ - Derrida. Jacques, de la Grammatologie, édit de minuit, paris, 1967,p 381 .

Derrida Jacques, positions, édit minuit, paris 1972, p46 . -²

Sapir,Edward, linguistique, trad : Jean-elie et Nicole Souté, édit: minuit, paris, 1968,p30 -³

Dérrida.Jacques, de la Grammatologie, op.cit.p 16. -⁴

-⁵ دو سوسير فرديناند، دروس في السانبات العامة، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، دط، 1986، ص 51.

-⁶ Jakobson Roman, six leçons sur le sons et le sens, édit: minuit, paris 1976, p77

-⁷ دريدا جاك، الكتابة و الإختلاف، ترجمة، كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص 111.

-⁸ Benveniste.E, problèmes de linguistique généraleT1, édit: Gallimard, paris, 1966,p 51

-⁹De la Grammatologie,op.cit. p73. Dérrida, Jacques

-¹⁰ Kristeva, Julia et autres, la traversée des signes, édit: Seuil, Paris, 1975, p21

-¹¹ D Jacques, de la Grammatologie,op.cit. p 77.

-¹² كبرزويل إديث، عصر ابنوية من ليفي شمراوس إلى فوكو، ترجمة: جابر عصفور، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1986، ص 243.

-¹³ موروسير إدوار، الفكر الفرنسي المعاصر، ترجمة: عادل العوّا، منشورات عويدات، بيروت، 1989، ص 82.

-¹⁴ تودوروف وآخرون، المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة: عبد القادر قنيبي، دار افريقيا الشرق، ط2، دت، ص 23.

-¹⁵ مهييل، عمر، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، دط، ص 269.

-¹⁶ Jacob André, introduction à la philosophie du langage, edit : Gallimard, 1976, p 326

-¹⁷ مارتيني أندري، مبادئ اللسانبات العامة، ترجمة: سعدي زبير، دار الآفاق، دط، 1999، ص 100.

-¹⁸ Husserl. E , l'origine de la Géométrie, traduction et introduction, par Jacques Derrida, Presse Universitaire de France, Paris, 1962, p 58..

-¹⁹ Husserl. E , l'origine de la Géométrie, traduction et introduction, par Jacques Derrida, Presse Universitaire de France, Paris, 1962, p 58

8. المراجع :

1- دي سوسير فرديناند (1986) ، دروس في السانبات العامة، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، دط.

- 2- دريدا جاك(1988)، الكتابة و الإختلاف، ترجمة، كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1.
- 3- تودوروف وآخرون(دت)، المرجع والدلالة في الفكر الساني الحديث، ترجمة: عبد القادر قنيني، دار افريقيا الشرق، ط.2.
- 4- كيرزويل إديث(1986)، عصر ابنوية من ليفي شمراوس إلى فوكو، ترجمة: جابر عصفور، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، ط.2.
- 5- موروسير إدوار(1989)، الفكر الفرنسي المعاصر، ترجمة: عادل العوّا، منشورات عويدات، بيروت.
- 6- مهييل عمر(دت)، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- 7- مارتيني أندري(1999)، مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة: سعدي زبير، دار الآفاق، دط، .
- 8- Derrida. Jacques, (1967)de la Grammatologie, édit de minuit, paris
- 9- Derrida Jacques,(1972) positions, édit minuit, paris .
- 10- Derrida.J, (1967) l'écriture et la différence, édit : Seuil, paris.
- 11- Husserl. E (1962) l'origine de la Géométrie, traduction et introduction, par Jacques Derrida, -puf, Paris.
- 12- Benveniste.E,(196) problèmes de linguistique généraleT1, édit: Gallimard, paris.
- 13- Jacob André, (1976) introduction à la philosophie du langage, edit : Gallimard.paris.
- 14- Jakobson Roman, (1976) six leçons sur le son et le sens, édit: minuit, paris.
- 15- Kristeva Julia et autres, (1975), la traversée des signes, édit: Seuil, Paris.
- 16- Sapir, Edward(1968), linguistique, traduction : Jean-elie et Nicole Souté, édit: minuit,paris.